

نجم الدين التفليسي

شاعر صوفي من القرن السابع الهجري

الدكتور كوتشا جعفر يدره

نادراً ما نجد في المصادر العربية المكتوبة في القرون الوسطى أسماء تحمل نسبة التفليسي ، ولكنها مع ذلك موجودة . من بين هذه الأسماء الطبيب المداوي لسيف الدولة الحمداني (٣٣٣ - ٣٥٤ هـ) عيسى الرقي التفليسي^(١) وشارح المتنبي وهو الأديب الحسن بن بنسار أبو محمد التفليسي^(٢) والعالم الكبير حبش التفليسي^(٣) وغيرهم .

● الدكتور كوتشا جعفر يدره كاتب المقال هو مدير المركز الثقافي السوفييتي بدمشق . وهو متخرج في كلية الاستشراق بجامعة تفليس (بفتح التاء وبكسرهما) أو تبيليسي كما تدعى اليوم . وقد عمل سابقاً في معهد الاستشراق بتبيليسي . والمعهد غير الكلية إذ المعهد تابع لأكاديمية العلوم الجورجية . واختصاص الدكتور - إلى جانب استعرابه - بالنقود الإسلامية القديمة . ومع ذلك اهتم بالعلاقات الجورجية العربية إبان القرون الوسطى في المجالات الاقتصادية والسياسية .

وفي أثناء إقامته بدمشق مديراً للمركز الثقافي شرع يُعنى بالعلماء والأدباء المسلمين الذين خرجوا من تفليس ونسبوا إليها . وبينهم من قدم بلاد الشام . ومن هؤلاء الصوفي نجم الدين التفليسي - وما أجل أن يحب المرء بلده ويعنى بتاريخها وشؤونها - والذي يطالع المختارات الشعرية القليلة التي وردت منثورة في بعض الكتب الأدبية منسوبة إلى نجم الدين لا بد أن يعجب ببلوغته وأدبه وحسن بيانه المصقول في ذلك العصر .

ونحن ننشر مقال الدكتور وما نقله من شعر نجم الدين الصوفي عن الكتب المحففة نقلاً دقيقاً وأميناً . ولكن نشير في الهامش إلى ما نراه من تصحيح .

عبد الكريم اليافي

ان نسبة التفليسي تشير الى صلة ما بين حامل هذه النسبة وبين تبيليسي (تفليس بالعربية) عاصمة جورجيا السوفيتية التي كان يسميها العرب في القرون الوسطى جُرْزان أو بلاد الكُرْج .

وقد فتح تبيليسي وجرزان القائد العربي المعروف حبيب بن مسلمة في عهد الخليفة عثمان بن عفان . وفي ثلاثينيات القرن الثامن الميلادي أصبحت تبيليسي مركزا للامارة العربية . وفي القرنين التاسع والعاشر الميلاديين عدت هذه المدينة احدى أكبر مدن ما وراء القفقاس ، وقد كانت متصلة بواسطة طرق تجارية جيدة مع مختلف مدن الشرق الاوسط وكانت لها دار الضرب الخاصة حيث كانت تضرب الدراهم ، كما اشتهرت بحماماتها الكبريتية ، التي لا تزال تعمل حتى يومنا هذا .

وقد اصبح امراء تبيليسي منذ بداية القرن التاسع الميلادي ينتهجون سياسة مستقلة عن الخلفاء العباسيين وهذا ما كلف احدهم وهو اسحق بن اسماعيل حياته فقد وقع في الأسر بعد أن خسر معركة ضد احد قادة الخلافة وهو بغا الكبير ثم اعدم سنة ٨٥٢ م ، وقدم رأسه للخليفة المتوكل . وقد كتب شاعر البلاط علي بن الجهم قصيدة بهذه المناسبة حصل لقاءها على جائزة من امير المؤمنين بلغت ٣٠ ألف درهم^(٤) .

منذ بداية القرن العاشر الميلادي بدأ يحكم تبيليسي امراء عرب من بني جعفر استمر حكمهم حوالي القرنين . كانت تبيليسي تعتبر اذ ذاك مركزا سياسيا واقتصاديا وثغرا للاسلام . في عام ١١٢٢ م احتل الملك الجورجي داود الرابع تبيليسي وجعلها عاصمة لمملكته الجورجية الموحدة . واستمر المسلمون بعد ذلك يعيشون في تبيليسي الى جانب المسيحيين . وقد قدم لهم الملوك الجورجيون الحماية فلم يكونوا يشعرون بشيء من الحرج

والضيق . ويتحدث عن هذا بوضوح ابن الأزرقي الفارقي^(٥) .

خرج من تبليسي الكثير من مشايخ الاسلام والفقهاء والعلماء والتجار والحرفيين الذين كانوا يتمتعون بحرية التنقل الى العالم الاسلامي اذ ذاك ، وكثيرا ما كانوا يستقرون ويتابعون حياتهم في مختلف مدن الشرق الاوسط .

ان دراسة حياة هؤلاء الناس ونشاطهم لها اهمية كبرى في تاريخ جورجيا . فهي اولا تلقي الضوء على مختلف جوانب تاريخ حضارة المسلمين التبيليسيين وهذا لم يدرس بشكل كاف حتى الآن ، وثانيا تبيّن الروابط الثقافية وغيرها بين تبليسي وبقية مدن العالم الاسلامي ، ومن بين هذه المدن مدينة دمشق .

يشير ابن عساكر وابن شداد الى بعض المواقع الدمشقية المرتبطة باهالي دمشق المنسوين الى تفليس . منها مثلا مسجد امين الدين بن سعيد التفليسي وعين التفليسي^(٦) . وما بين ١٢٤٥ - ١٢٥٩ م كان نائب قاضي قضاة سورية كمال الدين التفليسي المولود في تبليسي عام ٦٠١ أو ٦٠٢ هجرية (١٢٠٤ - ١٢٠٥ ميلادية) ثم هو يشغل في عام ١٢٥٩ م منصب قاضي القضاة^(٧) مدة قصيرة .

في هذه المقالة أريد أن أركز الانتباه على أحد الشعراء المنسوين الى تفليس ، وقد كان ذا علاقة بسورية في مراحل حياته الاخيرة ، وتوفي في ثلاثينيات القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي في دمشق .

اسمه ثابت بن تاوان بن احمد نجم الدين أبو البقاء التفليسي ، ولم يرد ذكره في دليل الادب لبروكلمان ولا عند خير الدين الزركلي وعمر

كحالة ، الا انه لم يكن قليل الشهرة عند معاصريه . نجد معلومات حول حياة نجم الدين التفليسي ونشاطه لدى شرف الدين الاربلي^(٨) المعروف بابن المستوفي (المتوفى ٦٢٨هـ - ١٢٣٩ م) والمنذري^(٩) (المتوفى ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) وأبي شامة^(١٠) (المتوفى ٦٦٥ هـ - ١٢٦٨ م) ومؤلفين متأخرين مثل محمد بن شاکر الکتبي^(١١) (المتوفى ٧٦٤ هـ - ١٢٦٢ م) وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي^(١٢) (المتوفى ٧٦٤ هـ - ١٢٦٢ م) وأبي المحاسن ابن تغري بردي^(١٣) (المتوفى ٨٧٤ هـ - ١٤٧٠ م) .

لم يؤرخ أحد من هؤلاء ميلاد نجم الدين ، ولكن يمكن وضع هذا التاريخ في أواسط القرن السادس الهجري ، وأعتقد أنه ترك تيليسي في شبابه المبكر واستوطن بغداد ، حيث حصل على علوم واسعة . وقد كان المؤرخ والمحدث المعروف ابن الجوزي أحد معلميه ، فقد كان نجم الدين يستمع الى دروسه ، ثم صار يحدث عنه .

في شبابه تقرب من الصوفي المعروف في عصره الفقيه والمفسر والواعظ شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي^(١٤) (٦٣٢ هـ - ١٢٣٤ م) وأصبح من كبار أصحابه . وقد كان السهروردي يثق به الى درجة انه اذن له ان يصلح ما رآه في تصانيفه من الخلل . وبهذا يمكننا اعتبار نجم الدين منقحا لآعمال شهاب الدين السهروردي مثل « عوارف المعارف في بيان طريق القوم » و « جذب القلوب في مواصلة المحبوب » و « بغية البيان في تفسير القرآن » وغيره .

وتشير السير الى انه كان لنجم الدين التفليسي معرفة بالفقه والاصول والعربية والنحو واللغة والاختبار والسلوك ، وله رياضات ومجاهدات ، وكان مليح الكتابة والانشاء .

وقد قَوم الخلفاء العباسيون عالياً معارف نجم الدين التفليسي ووثقوا به كما وثقوا بشهاب الدين السهروردي في المهنات الدبلوماسية ، ويعلمنا المنذريّ ومن بعده الصفديّ والكتبيّ أنّ نجم الدين أُرسِلَ رسولا من ديوان الخليفة الى مصر ، ولكن للأسف لم يذكر تاريخ ارساله في هذه المهمة .

ولقد كتب نجم الدين التفليسي الكثير من المؤلفات وطائفة من القطع والقصائد الشعرية ، كانت معروفة معرفة جيدة بين معاصريه . ويورد شرف الدين الاربلي المؤرخ والشاعر في حديثه عن حياة نجم الدين التفليسي اربعا من تلك القطع الشعرية ، كما ضمن شهاب الدين القوصي^(١٥) (المتوفى ٦٥٣هـ - ١٢٥٥م) في كتابه « تاج المعاجم » الذي يتحدث عن رواية الحديث الشريف المعروفين من قبله ضمن كتابه هذا أربع قطع أخرى من شعر نجم الدين . ومن « تاج المعاجم » مع بعض الاختلاف في النص وردت هذه القطع في مؤلفات الصفدي والكتبي .

ويؤكد شرف الدين الاربلي أنه كان لنجم الدين « طبعٌ مُواتٍ في نظم الشعر » ، وقد الدكتور عبد الكريم اليافي عالياً مقدره التفليسي الشعرية عندما قرأه . كل هذا شجعتني انا المؤرخ غير المختص بالشعر العربي أن أورد ذيلاً قطعاً شعرية من نظم نجم الدين التفليسي ، معتمداً على تاريخ إربل لشرف الدين الاربلي والوافي بالوفيات للصفدي وفوات الوفيات للكتبي . أنقلها كما وجدتها في الكتب المحققة .

احدى هذه القصائد كتبها التفليسي على كتاب « قوت القلوب في معاملة المحبوب » وهو يعتبر من أشهر كتب الصوفي أبي طالب المكي (المتوفى في ٢٨٦هـ - ٩٩٦م) . هذه القصيدة قرأها التفليسي على شرف

الدين الاربلي متأخرا في ١٥ ربيع الآخر ٦١٢ هـ الموافق ١٣ آب ١٢١٥ م .

(المتقارب)

سقى الله تُرْبَ أَبِي طَالِبٍ	من السَّلْسِيلِ بِمُزْنِ سَكُوبٍ
وَجَازَاهُ بِالْفَضْلِ أَسْنَى الْجِزَاءِ	عَلَى حُسْنِ تَأْلِيفِ « قُوتِ الْقُلُوبِ »
وَلَقَّبَاهُ نَضْرَةَ دَارِ النَّعِيمِ	وَأَسْكَنَهُ فِي جِوَارِ الْحَبِيبِ
كَمَا ضَمَّنَ « الْقُوتَ » سِرَّ الْعُلُومِ	وَأَوْدَعَهُ كُلَّ مَعْنَى عَجِيبِ
إِشَارَاتِهِ مِنْ وَرَاءِ الْعُقُولِ	وَأَسْرَارِهِ مِنْ مَطَاوِي الْغُيُوبِ
وَيَكْشِفُ لِلْمَرْءِ عَنْ نَفْسِهِ	مَكَانَ الْهُوَى وَخَفَايَا الْغُيُوبِ
مَتَى خُصَّ عَبْدٌ بِهَذَا الْكِتَابِ	وَفَهَّمَهُ اللهُ فَهْمَ اللَّيْبِ
فَلَا مَسَّهُ نَصَبٌ بَعْدَهُ	وَلَا مَسَّهُ أَبَدًا مِنْ لُغُوبِ ^(١٦)

☆ ☆ ☆

أما القطع التي كتبها التفليسي ونقلها لنا بخطوطها كل من شرف الدين الاربلي وشهاب الدين القوصي ، فهي التالية :

(مجزوء الرمل)

اعقلوا الأخبار عَقْلَ (م)	الرأي لا عَقْلُ الرَّوَايَةِ
فكثير من رواها	وقليل ذو الرَّعَايَةِ ^(١٧)

☆ ☆ ☆

(الكامل)

يا هادماً منذ الولادة عُمُرُهُ	مهلاً فما المهودوم الا زائلُ
إن الحياة حكمت ببناء مائلاً	حتى متى يبقى البناء المائلُ ؟ !

ها أنت في نفس السلامة هالكُ اذ بتّ في حال الأمانة راحل^(١٨)*

☆ ☆ ☆

(المضارع)

يُشير بالّلين قـوومُ وهُمُّ** الشـداد الغـلاطُ
لهمُ قلوبٌ نيامُ وألسنٌ أيقـاظُ^(١٩)

☆ ☆ ☆

(الرمل)

شُرّمال حُزّتة ذاك الذي حُزّت*** حدّ العلم في استحقاقه
اكتسبت الأثم في تحصيله وحرمت الأجر في إنفاقه^(٢٠)

☆ ☆ ☆

(الكامل)

إن شام قلبي عنك بارق سلوة طفيق الغرام الى هواك يحثة
أو كاد يبيدي ضره قال الهوى لا كان من يشكو الهوى و يبتئه^(٢١)

☆ ☆ ☆

(السريع)

اشتبهت في وقتنا الطعمه لا نعرف الحبل من الحرمة

☆ الصحيح : اذ انت في حال الامانة ذاهل .

☆☆ الصحيح من دون الواو ليستقيم الوزن أي : هم الشداد الغلاط .

☆☆☆ الصحيح : جزت بالجيم من جاز يجوز أي تجاوز . وفي البيت جناس

التصنيف بين حزته وحزرت .

لَكُنْ بِسَبِّ أَقْصَرِ مِنْ غَيْرِهَا وَلَقَمَّةٌ أَصْغَرَ مِنْ لُقَمَةٍ^(٣٣)

☆ ☆ ☆

(مجزوء الرمل)

انْقَمِ يَوْمَكَ هَذَا إِنَّمَا يَوْمُكَ ضَيْفٌ
وَأَنْتَ هَلْ فَرَضْتَ غَيْرَ حَاضِرٍ فَالْوَقْتُ سَيْفٌ
لَا تُضَيِّعْ هَذِهِ الْأَنْدَ فَمَا سَ فَالتَّضْيِيعُ خَيْفٌ
عَسَدٌ عَن سَوَفٍ أَوْ السَّاءِ عَسَّةٌ أَوْ أَيْنَ وَكَيْفٌ^(٣٣)

☆ ☆ ☆

ارتبطت سنوات حياة نجم الدين التفليسي الاخيرة بسورية كما ذكرنا آنفا ، ويتحدث أبو شامة عن مكانته العالية ويقول : انه كان « كبير المحل » فقد كان إماماً وشيخاً في المدرسة الأُسدية المنسوبة الى أسد الدين شيركوه بحلب .

توفي نجم الدين التفليسي في السابع من جمادى الاولى سنة ٦٣١ هـ / ٨ شباط ١٢٣٤ م بدمشق ودفن في مقبرة الصوفيين . ووقف كتبه للخانقاه السميصاتية .

ان المعلومات حول نجم الدين التفليسي وحول مكانة إبداعه الشعري نادرة ، كما نرى ، وذلك لان ديوان اشعاره لم يصلنا ، لذا يصعب علينا الحكم الدقيق على منزلته بين الشعراء .

وأظن أن المصادر الجديدة حول التراث العربي ستسد هذه الثغرة .

التعليقات

- (١) ابن ابي اصيبعة - عيون الانباء في طبقات الاطباء . القاهرة ١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢ م ص ١٤٠ .
- (٢) القفطي - انباء الرواة على انباء النحاة . بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم - الجزء الاول القاهرة - ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م ، ص ٢٩٠ رقم ١٦٨ .
- (٣) عمر رضا كحالة - معجم المؤلفين ج ٣ - دمشق ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م ، ص ١٨٩ .
- (٤) علي بن الجهم - ديوان - عني بتحقيقه ونشره وجمع تكلته خليل مردم بك - دمشق ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٧ م ، ص ١٧٤ - ١٧٦ .
- (٥) انظر القلانسي - ذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨ م ، ص ٢٠٦ .
- (٦) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - المجلد الثانية - القسم الاول - خطط بتحقيق صلاح الدين المنجد - دمشق ١٩٥٤ ، ص ٧٦ رقم ٢٢٩ .
- ابن شداد - الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة - تاريخ مدينة دمشق عني بنشره وتحقيقه ووضع فهرسه سامي الدهان - دمشق ١٣٨٥ هـ ١٩٥٦ م ، ص ١٢٤ ، ١٥٧ .
- (٧) ابو شامة - تراجم الرجال في القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين . القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ .
- ابن طولون - قضاة دمشق - دمشق ١٩٥٦ ص ٧٠ - ٧١ .
- (٨) الاربلي - تاريخ اربل - حققه وعلق عليه سامي بن السيد خماس الصقار - القسم الاول ، ص ٢٥٨ - ٢٦٠ .
- (٩) المنذري - التكملة لوفيات النقلة - المجلد الثالث حققه وعلق عليه الدكتور بشار عواد معروف - بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .
- (١٠) ابو شامة - تراجم الرجال ... ص ١٦٢ - ويذكر المؤلف اسم ابيه « ناوان » .
- (١١) الكتي - فوات الوفيات والذيل عليها - المجلد الاول تحقيق الدكتور احسان عباس بيروت ١٩٧٣ ص ٢٧٠ .
- (١٢) الصفدي - كتاب الوافي بالوفيات - ج ١٠ تحقيق ج - سويليه وعلي عمارة فيسبادن ١٩٨٠ ، ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .
- (١٣) ابو المحاسن بن تفرى بردى - النجوم الزاهرة من ملوك مصر والقاهرة - القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٢٨٦ . ويذكر المؤلف اسم ابيه « بادان » .

- (١٤) انظر عن حياته واعماله - معجم المؤلفين لكحالة - ج ٧ ، دمشق ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م ، ص ٢١٠ ، وخير الدين الزركلي - الاعلام - قاموس تراجم الرجال والنساء ج ٥ ، ص ٢٢٢ .
- (١٥) انظر حياته واعماله - كتاب الوافي بالوفيات ج ٩ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .
- (١٦) انظر الاربلي - ص ٢٥٩ .
- (١٧) انظر الاربلي - ص ٢٥٩ .
- (١٨) انظر الاربلي - ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .
- (١٩) انظر الاربلي - ص ٢٦٠ .
- (٢٠) انظر الصفدي ص ٤٦٩٠ . في فوات الوفيات للكتبي (ص ٢٧٠) :
شر المال حَزْتُهُ ذاك الذي حَزَّتْ ... الخ .
- (٢١) انظر الصفدي ص ٢٧٠ . في فوات الوفيات للكتبي : ان شام طرفي .
- (٢٢ - ٢٣) انظر الصفدي ص ٤٧٠ ، والكتبي ص ٢٧٠ .